الفصل الثاني

الأزهر والعلماء

obeikandl.com

obeikandl.com

حياة العلماء

هذا الفصل الذى نبدؤه خاص بالأزهر والعلماء . وأعتقد أنه من الخير أن نمهد له بكلمة قصيرة نظهر فيها شيئاً قليلا من هـذه « الملامح » التى ستطلع على القارىء فى هذا الفصل . شيئاً من ملامح هؤلاء العلماء الذين عاشرهم الجبرتى وخالطهم وعرف سيرهم أتم معرفة . ثم سجلها لنا هذا التسجيل الأمين ، الذى لم يكن متحيزاً فيه ولا متحيفاً . بل رسم صورة لم يكن له فيها خيار ولا حيلة . فإذا وجدنا بعض هذه السيرة التى سجلها لا يرضى شعورنا . ولا يوائم تلك الصورة المشرقة الرضية الكريمة التى يحتفظ بها لنا لهؤلاء العلماء . فليس الذنب فى ذلك على الجبرتى . وسنجد ، بعد أن ننتهى من فصل « الأزهر والعلماء » هذا ، أن خيالنا ، فيما رسم لهؤلاء العلماء من صورة مبرأة من العيب ، أو قريبة من الكمال ، كان مسرفا فى حسن الظن . ويجب أن نذكر عندئذ ، أن الناس هم الناس .

نجد فى هذا الفصل : أن الأزهر ورجاله كانت لهم مكانة ممتازة يوم ذاك . يقدمون على من سواهم من الناس ، حتى الأمراء . وتزورهم الولاة وكبار الأمراء فى بيوتهم . ويكرمهم بعض الولاة حتى يقبل بعضهم يد واحد منهم وقدمه . ونجد العلماء سفراء وقادة . يسفرون بين الناس والمماليك ليرفعوا عنهم الظلم ، ويسفرون بين المماليك بعضهم وبعض ليزيلوا خصومة أو يرفعوا حربا ، ويسفرون بين نابليون وأهل مصر ، أو الثائرين منهم ، لأمور كثيرة خطيرة نجد تفصيلها فى الجزء الثالث من هذا الكتاب . بل يسفرون إلى تركيا نفسها وإلى سلاطينها فى العظيم الجليل من الأمر .

ونجد أن بعض العلماء أظهر شجاعة فائقة فى كثير مما عرض لهم أو عرضوا له من أمر هذه الحياة المضطربة التى كان الناس يلقونها من المماليك أو الولاة . ومن أمر هـذه العلائق المضطربة الشديدة القلق ، التى كان المماليك والولاة يحدثونها بين بعضهم وبعض .

نرى أمثلة بارزة مشرّفة لهذه الشجاعة فيما روينا عن الشيخ الدردير ، والشيخ

الشرقاوى ، والشيخ السادات ، وما كان لهم من مواقف إيجابية حاسمة إذا تجاوز الظلم حدّه ، وأثارهم سلوك المماليك أو عنف الفرنسيين وجبروتهم .

ونجد إلى جانب هذه الصورة ، صورة أخرى لزهد بعض العلماء وانصرافهم عن هذا كله إلى العلم وحده . والتحول عن الرغبة أو الشراهة فى جمع المال والحرص على الثراء ، إلى التحلى بفضائل الأخلاق ، من الكرم والشجاعة والبر والإيثار والتواضع ، إلى آخر هذه الفضائل التى دعا إليها الدين . كما نرى فى سيرة الشيخ العفيفى ، والصائم ، والراشدى ، والمدابغى ، والشنوانى ، ذلك الذى كان يكنس المسجد ويُسْرج قناديله بيده . والذى فرهاربا حتى لايلى مشيخة الأزهر ، فلما أكره عليها ظل يسرج قناديل المسجد ويكنسه بيده حتى مات .

ونجد صورة رائعة كريمة لحياة العلماء وخلقهم وكرمهم وشجاعتهم ، فى تلك السيرة النادرة التى سجلناها للشيخ على الصعيدى . كما نجد صورة أعظم منها روعة وكرما فيما فصلنا من سيرة الشيخ محمد الحفنى . وهى وحدها جديرة بأن تشرف حياة العلماء فى ذلك العصر ، وفى كل عصر ، وأن يزهى بها تاريخهم ، ويسمو مكانهم ، ويعلو ذكرهم وقدرهم . ولكننا ، إلى جانب هذه الصورة الطيبة الكريمة ، نجد أخرى لا نستطيع أن نصفها ، أو نتحدث عنها ، فهى تتحدث عن نفسها وتصف أصحابها أبلغ وصف وأصدقه وأعجبه أيضاً ، كذلك الشيخ الذى ترك لابنه أربعين ألفا من الذهب والفضة ، غير ما ترك من الوظائف ، والرزق[1] ، والضياع ، والدور . وذلك الذى نازع عجوزا فقيرة على قطعة صغيرة من الأرض ، ولقى فى ذلك من المهانة مالقى ، ولم يدع لها حقها حتى مات . وذانك الشيخان اللذان تشاحنا على وقف صغير ، ولم يترك أحدهما مرتب هذا الوقف لزميله ، بعد أن نال مشيخة الأزهر ، حتى إذا ناله الآخر بعد موت صاحبه ، نازع خدم الوقف حقهم وأوشك أن يسلبهم إياه . فلما جاء الفرنسيون ، شغل نفسه بالوساطة لديهم فى حاجات الناس ، وجمع من ذلك مالا جمّاً ، وحاز لنفسه تركات كثير من الموتى ، وحرم منها أصحابها ووارثيها . ثم أضاف إلى ملكه الخاص أماكن موقوفة

(١) المخصصات .

ودانك الشيخان اللذان تنازعا مشيخة الأزهر فأيقظا فى ذلك فتنة رفعت بسببها الأسلحة والبنادق فى داخل الأزهر ، وقاتل فيها أهل العلم بعضهم بعضاً ، فمات منهم عشرة وجرح غيرهم وسجن آخرون ، ومنعت الصلاة فى الأزهر بسبب ذلك وغلّقت أبوابه . وذلك العالم الكبير الذى كان ، على الرغم من ماله وثرائه ، يضم إلى ماله تركات من يشاء ممن ماتوا بالطاعون . فلما جاء الفرنسيون سايرهم ولاطفهم وتودد إليهم ونال فى أيامهم أموالا عظيمة ، وجاهاً عظيما . كان إذا مشى سار أمامه الحراس بأيديهم العصى يدفعون الناس عن طريقه . وجعله الفرنسيون جابيا يجمع لهم المال والمغارم من البلاد . فكان الناس والفلاحون يسارعون إليه بالهدايا والرشا وهو يأخذ . ثم نال هذه المنزلة عند العثمانيين بعد أن خرج الفرنسيون ، فزاد ماله وجاهه . ولكنه مع ذلك يعطل قوماً باعوه بيتا لهم . غاب عنهم خمس سنين حتى مات أكثرهم قبل أن يستوفى حقه من ثمن هذا البيت . ثم نال هذه المكانة أومثلها أيضاً عند محمد على ، وشهد له شهادة الزور فى عمر مكرم ، واستوفى ثمنها منه ألف جنيه . ثم لايكفيه ذلك فيطلب إلى محمد على أن تسند إليه نظارتا وقف كانتا للسيد عمر ، فأسندها إليه . ثم هو يضع يده على مال العجائز من النساء الأرامل ؛ لأنهن ذوات مال مستضعفات . ويضم إلى بيته زاوية كانت تقام فيها الصلاة ويذكر اسم الله ؛ وينبش القبور التى تجاورها فيخرج منها عظام الموتى ليوسّع من داره مايريد ؛ ويزيد فى رقعتها مايشاء . فلما ضم الزاوية ونبش القبور فأخلاها من عظامها ؛ بنى على هذه وتلك دارا كبيرة لزوجاته . وذلك الشيخ الذى سلب حق أخيه فى مشيخة من مشايخ المتصوفة . ثم كان همه وديدنه وشاغل حياته ونفسه ، جمع المال والتحيّل له من كل سبيل . وكلما كثر ماله زاد كبرياؤه وزاد طغيانه ، حتى ليضنّ على الناس أن يقبلوا يده ، فيترك لهم طرف ثوبه يقبلونه . فإذا خرجوا من حضرته غسل يده بالماء والصابون ، من أثر سلامهم وملامسة أيديهم وشفاههم . والذى استحوذ على كثير من الأضرحة يتنظّر على أوقافها . ثم نازع الفقراء من خدمها وناكدهم فيما ينالون من مال قليل ، حتى كان يضربهم بالمقارع على أرجلهم . ذلك الشيخ الكبير الذى يقول عنه الجبرتى : إنه « كان يأخذ المال من

الفقير المعدم ، وكسرة الخبز الناشفة من المحتاج » ، والذى كان يرشى شهود القضاء ليشهدوا زورا فيما يريد أن يربح من القضايا ويستولى عليه من حجج الأوقاف والتركات . وكان ينفق كثيرا من وقته ، وجهده ، فى استخراج الدهون والعطور ؛ والمركبات المفرحة المنعشة للقوة ، المجددة للشباب . ذلك الشيخ الذى مات عن كثير من الجوارى ، والمماليك ، والعبيد ، والخصيان . والذى وهبت زوجه بعد موته محمدا عليا خمسين ألف جنيه حتى لا يصادرها فيما ترك من ثروة ، ومال .

نجد هذا وغيره من سيرة العلماء فى هذا الفصل الذى يطالعنا بعد قليل . فإذا وجد بعض القراء فى هذا وغيره ما يؤذى إحساسهم ، ويؤلم شعورهم ، ويصدمهم ويخيب ظنونهم فى هذه الصورة الزاهية الكريمة التى رسمت فى أذهانهم عن هؤلاء العلماء . إذا أحسّ بعض القراء ذلك . فإن موقفى منه واضح جدا : فقد التزمت الأمانة التامة فى كل ما أكتب من هذه الدراسات . على أن ماسجله الجبرتى من ذلك عن العلماء ، خيرا كان أم نكرا ، لا سبيل إلى الشك فيه ، فيما أعتقد .

على أننا ننبه إلى أمر يجب ألا يفوتنا ، أو يفوت القارىء . هو أن الشيوخ الذين سجل عنهم الجبرتى ماسجل من شر ونكر . كانوا هم الذين يلون المناصب الكبيرة ، والوظائف الرسمية العالية . وهؤلاء الشيوخ الذين ذكر عنهم الجبرتى تلك السجايا الكريمة من أخلاق العلماء ، كانوا بعيدين من هذه المناصب ، والوظائف . ونذر أن نجد لهذه القاعدة شذوذا . ولست أدرى ، هل كان وجود هذه الصفات المنكرة عند الأولين سببا لنوالهم هذه الوظائف والمناصب ، أو نتيجة له . على أنهما قد يكونان سببا ونتيجة معاً .

هذا تلخيص موجز جدا لما نجد من سيرة العلماء كما صوّرهم الجبرتى ، وقد كان صديقا لهم ، خبيرا بهم ، عارفا لأسرار حياتهم . وهذه الصورة التى أجملناها هنا ونفصلها بعد قليل ، قاصرة على الناحية الخلقية . أما النواحى الثقافية والعلمية فنجد تفصيلها فى فصل « الثقافة والبيئة » فى نهاية هذا الجزء ، وفى الفصل الخاص بالحياة الفكرية والثقافية فى الجزء الأول من كتابنا[1] .

---

(١) ص ٤٧ وما بعدها

الأزهر ومكانته

يشغل الأزهر وعلماؤه ، وطلبته أيضاً ، قسما كبيرا من عجائب الآثار . وأخبار العلماء وتراجمهم ، والحوادث التى كان محورها الأزهر ، تكوّن جزءا من أهم ما سجله الجبرتى وحرص على تدوينه .

وهذا طبيعى . فقد كان الأزهر هو المثابة التى يفزع إليها الناس حين يحزبهم أمر ، والمأمن الذى يقصده الشعب حين تضيق به السبل ، وكثيرا ما كانت تضيق بالشعب السبل ، وما أكثر ما كان يحزب الناس من أمر ، فى تلك الحقبة من تاريخ مصر . وكان العلماء والمجاورون ، يستمعون إلى الشعب عندما يلجأ إليهم ، فيغضبون على من أوقع بالناس الظلم . وكان غضبهم ، فى أحيان كثيرة ، كافيا لأن يرجع الظالم عن ظلمه ، بل نجد فى بعض الأحيان ، أن الحاكم الظالم كان يعلن عن توبته أمام العلماء ، ويعاهد الله معهم على أن يعدل .

فالأزهر ، فوق مكانته العلمية ، ومهمته الدينية ، كان بمثابة « البرلمان » الذى يترجم عن رغبات الشعب ، سخطاً ورضا ، والترجمة عن السخط أكثر ، بطبيعة الحال ، لأن شئون الحكم ، فى ذلك الوقت ، كان فيها كثير مما يُسخط . وقليل جدا مما يسرّ ويرضى . وقد وجدنا فى الفصل الذى خصصناه عن الحملة الفرنسية على مصر [1] ، كيف كان الأزهر بؤرة الثورة عليها ، وكيف كان رجاله قادة لها ، وأبطالا فيها ، وكيف برزت قوة الأزهر وسيطرة رجاله على مقدرات الشعب ، وتوجيه الأمور .

وفى صفحات متفرقة ، كثيرة ، مما كتبه الجبرتى ، نستطيع أن نتعرف تلك المكانة السامية التى كان الأزهر ورجاله يجدونها لأنفسهم فى ذلك الوقت ، والتى كان الناس ، حكاما ومحكومين ، يعترفون لهم بها ، ويحرصون عليها ، ويفيدون منها .

---

(١) فى الجزء الثالث من الكتاب

وقد كان وجدان الناس ، فى ذلك الوقت ، وجداناً دينيا ، وعاطفتهم ، فى الأغلب ، قائمة على الدين والعقيدة ؛ فلم تكن لهم ، غالبا ، عاطفة وطنية ، ولا يستطيعون أن يدركوها . والعلماء رجال الدين ، والأزهر موطن العلم والعلماء . فكان العلماء يشعرون بما لهم من مكانة وعزة ، بقدر مافى نفوس الناس من العاطفة الدينية ، وكان الناس ينظرون إليهم كحماة للشرع والعدل ، ورقباء على صلاح الحكم ، وتوجيه الحاكم ، وكبح جماح من يرون فيه الشطط أو الفساد ، وكان الحكام يخشونهم لهذه الأسباب ، وخاصة إذا اجتمعت كلمتهم مع الشعب على رأى واحد .

وكان العلماء يقدمون ، فى المناسبات العامة ، على جميع الناس ، وعلى الأمراء . أقام الأمير عبد الرحمن كتخدا حفلات شائقة لختان أولاده . دامت أياما ، فدعا فى أول يوم المشايخ والعلماء ، وفى اليوم الثانى مشايخ الطرق الصوفية ، وفى الثالث الأمراء والصناجق . ثم بقية الطوائف ، فيما تلا من الأيام .

وقد اختلف عبد الرحمن بك هذا مع إسماعيل باشا ، والى مصر من قبل الدولة ، وطلبه الوالى ليصعد عنده إلى القلعة ، فأبى عبد الرحمن وقال : لا أذهب إلا إلى بيت القاضى ، ولا أحاجج خصمى إلا فيه . فلما اشتد النزاع بينهما وضاق صدره « خرج من منزله ماشيا وأراد أن يذهب إلى الجامع الأزهر ، يقع على العلماء » .

ولما قدم على باشا حكيم أوغلى ، واليا على مصر ، زاره السيد أبو السرور البكرى شيخ السادة البكرية ، فتلقاه على باشا ، وقبل يديه وقدمه . وجرت بين طائفة من المماليك والعرب وقائع أسر فيها كبير من المماليك ، واقتيد مكبلا مهانا حتى دخل القاهرة ، وكان يحكمها مراد ، وإبراهيم . ففكا قيده ولا طفاه ، وسألاه أين يريد أن يقيم ، وتركا له أن يختار . فسار حتى دخل بيت الشيخ أحمد الدمنهورى فى بولاق ، وكان شيخا للأزهر ، وذهب كثير من خصومه ليأخذوه من بيت الشيخ فلم يجسروا .

وقد كان مراد صَلِفاً مغرورا ، صاحب قسوة وجبروت . ومع ذلك فقد

ذهب بنفسه إلى منزل السيد محمد البكرى ، عقب وفاته ، وخلع على ابنه ما كان له من مشيخة السادة البكرية ونقابة الأشراف .

العلماء سفراء وقادة

وكان العلماء ، ولهم هذه المنزلة السامية عند الحاكم ، وعند الشعب ، يقومون فى أوقات كثيرة بالسفارة بين بعض المماليك وبعض ، وبينهم وبين الوالى . فقد اختلف على بك الكبير مع طائفة كبيرة من المماليك وتفاقم بينهم الشر ، وكان على بك خارج القاهرة وهم يريدون أن يخرجوا لحربه . وعقدت لذلك جمعية حضرها الشيخ محمد الحفنى ، فعارض فى إرسال الحملة واشتد فى ذلك شدة قاسية ، وقال لهم إنكم خربتم البلاد بخصامكم وعنادكم وحربكم . فقالوا إننا إذا لم نذهب لحرب على بك قدم هو إلينا ، فقال الشيخ إنى مرسل إليه كتابا فلا تتحركوا حتى يأتى جوابه ، فامتثلوا . ثم أرسل الشيخ إلى على بك كتابا شديدا فيه زجر ووعظ ، ونصيحة . وقد انفرد على بك بعد ذلك بحكم مصر وفتح الشام والحجاز ، وكان مع ذلك لا يستطيع مخالفة الشيخ الحفنى .

ولما أرسلت الدولة الغازى حسن باشا إلى مصر لتخليصها من استبداد المماليك ، وظلم مراد وإبراهيم . اتفق هؤلاء على إرسال وفد لملاقاته ، وكان الوفد من المشايخ : العروسى ، والأمير ، والحريرى ، ومعهم اثنان من أتباع المماليك . فذهب الوفد إلى رشيد ، ولقى الغازى ، وكان المتحدث فيهم الشيخ العروسى . وذكر الجبرتى أن حسن باشا لقى الوفد ملاقاة حسنة ، وأكرمه وقابله ثلاث مرات . ثم أرسل إلى أعضائه بعد أن عادوا إلى القاهرة رسائل وردت من الدولة .

وقد كان ذلك فى رمضان . ويقول الجبرتى : إنه لما جاء العيد ، ركب إبراهيم بك إلى منزل الشيخ البكرى ، ثم إلى الشيخ العروسى ، والدردير . وصار يحدثهم « وتصاغر فى نفسه جدا » وأوصاهم بالمحافظة على الرعية ، وكف الناس عن الفتنة .

وعندما اختلف مراد وإبراهيم ، وخرج أولهما مغاضبا إلى الصعيد ، أراد إبراهيم ومن معه أن يصالحوه ، فأرسلوا إليه الشيخ السادات ، والشيخ العروسى ، شيخ الأزهر ، والسيد محمد البكرى .

ولما هزم المماليك أمام نابليون فى موقعة إمبابة ، تقدم العلماء ، باسم الشعب ، للتحدث إلى القائد المنتصر ، حيث كان المماليك يجدّون فى الهرب .

وكذلك كانوا سفراء بين الشعب وبين الفرنسيين ، عندما كانت تتحرج بينهما الأمور . وبعض هؤلاء العلماء صودرت أمواله ، وسجن ، وهو يتوسط بين رجال الثورة من المصريين ، وبين نابليون ورجاله .

الشيخ العريشى

ومن العلماء من قام بالسفارة عند السلطنة . فإن على بك الكبير أوفد الشيخ عبد الرحمن العريشى سنة ١١٨٣ ليحمل رسالة منه إلى دار السلطنة ، فى إسطنبول ، وليقوم ببعض الأعمال فيها . ومن قبل ذلك أرسل المماليك الشيخ عمر الطحلاوى مبعوثاً إلى دار السلطنة أيضاً — سنة ١١٤٧ — فقوبل بالإجابة ونجح سعيه . وألقى دروس الحديث فى مسجد أياصوفيا فاستمع إليه كبار العلماء فى الدولة . بل من العلماء من كان يرسل إلى السلطنة ، كالشيخ السادات ، فقد أرسل الشيخ إبراهيم السندوبى إليها بمكاتبات ، ومطالب استطاع أن يحققها .

وقد رأينا فى ترجمة والد الجبرتى[1] أن على بك الكبير طلب منه رسالة يبعث بها إلى السلطان ، مع هدية منه . لما عرف من جليل قدره عنده . وفى سنة ١١٦٠ لم يخرج الركب المغربى للحج لأن أمير الحج المصرى اعتدى عليه فى السنة السابقة ، وسلبه . فكتب مولاى عبد الله ، إلى علماء مصر يدعوهم للتدخل فى ذلك ، ومنع أميرهم من التعرض لركبه . كتب إلى العلماء ، ولم يكتب للأمراء ولا إلى الوالى .

---

(١) فى الجزء الأول من الكتاب ، الفصل الأول .

نداء من فوق المآذن

وكان العلماء قادة ، يتصدرون الناس إذا وقع عليهم ظلم ، أو اعتدى عليهم معتد ، أو كثرت عليهم المغارم والضرائب والمصادرات ، أو ألمّت بهم فتنة . كان الناس ، إذا وقع بهم شيء من ذلك ، توجهوا ، وحدانا وزرافات ، إلى الجامع الأزهر — وقد تذهب النساء أيضاً — ويذهب الصبيان ، ولهم فى الطريق إليه ثورة وعجيج . فإذا دخلوا الجامع صعدوا إلى مآذنه ينادون الناس ، ويصرخون بالظلم الذى يلقونه ، ثم يبطل فريق منهم دروس العلماء التى تحلّق حولهم فيها طلابهم فى الأزهر ، وقد يبطلون الصلاة فيه . ثم يقبلون على العلماء يستصرخونهم مستجيرين بهم . فيرسل العلماء بعضاً منهم إلى أولى الأمر ، أو يخرجون جميعا ، وقد يخرج بعضهم قائدا لهذا الجمع المستجير الغاضب حتى يصل به إلى مجلس ولى الأمر ، أو منزله ، طالبا منه رفع الظلم ، أو منع العدوان ، أو كفّ الجباة ، أو قطع الفتنة. ولهم فى ذلك شجاعة فائقة تستحق أن تدون . وهذا بعض منها .

ولا طاعة للسلطان إذا خالف الشرع

كان بكير باشا والياً على مصر ، سنة ١١٤٨ ، ثم وردت إليه مراسيم من السلطان فيها إبطال لبعض ما كان يصرف للناس من مرتبات ، فلما قرئت المراسيم قال القاضى : إن أمر السلطان لا يخالف ، وتجب طاعته ، فقال له الشيخ سليمان المنصورى . ياشيخ الإسلام ، هـذه المرتبات تصرف على مساجد وأسبلة وخيرات ، وهى قررت منذ أزمان واعتادها الناس ، ورتبوا أمورهم عليها . وطاعة السلطان واجبة إذا لم تخالف الشرع . فسكت القاضى ، وقال الباشا : إنه سيراجع أصحاب السلطنة فيما قاله الشيخ . وانفض المجلس .

وشكا رجل إلى الأمير يوسف بك الكبير : أن شيخا طلق عنه زوجته وهو غائب . فلما عاد وجدها زوجا لغيره . فغضب الأمير ، وأرسل رجاله فجاءوا بالشيخ . مثقلا بالحديد فى رجليه ورقبته ، وحبسه مع المجرمين . فذهب إليه جماعة

obeikandi.com

من العلماء ومعهم الشيخ على الصعيدى، والشيخ الجداوى، وتحدثوا إليه حديثا شديدا. وكانت بينهم وبين الأمير مناقشة عاصفة كان ختامها أن لعن الشيخ الصعيدى الأمير، ولعن من باعه، ومن اشتراه، ومن جعله أميرا. ثم أخذوا الشيخ من محبسه وخرجوا يسبّون الأمير، وهو يسمعهم.

وكان الشيخ السادات عالما كبيرا مسموع الكلمة، مرهوب الجانب، تشفع عند طاهر باشا فى رجل يسمى مصطفى أغا الوكيل، فقبل شفاعته. ثم طلبه إليه، فذهب الشيخ معه. ولكن رجال طاهر باشا خطفوه من الشيخ وهما يسيران فى منزل طاهر باشا. فغضب السادات ودخل على الباشا فخاطبه خطابا شديدا. فأطلعه طاهر على خطاب أرسله عدوّ له إلى مصطفى أغا. فقال له الشيخ. هذا لا ذنب له فيه. ولا يؤاخذ به. وإنما يؤاخذ بخطاب منه إلى عدوك. فأعفاه طاهر باشا من القتل، وأمره أن يقيم فى منزل السادات. ثم ذهب فى الليلة نفسها فزار الشيخ فى بيته، معتذرا.

بيع الحرائر

وللشيخ السادات، هو وشيخ آخر، موقف آخر من مواقف الشجاعة الفائقة، مع الوالى حسن باشا الجزائرلى.

فقد حضر هذا الوالى وأخرج الأمراء المماليك من القاهرة، إلى الصعيد. ثم استباح أموالهم وأخذ أولادهم ونساءهم أسرى، زاعما أنهم أرقاء لبيت المال. فاجتمع العلماء وقصدوا إليه يخاطبونه فيهم فتحدث السادات عنهم قائلا له: هل أتيت إلى مصر لإقامة العدل، ورفع الظلم، كما تقول. أم لبيع الأحرار، وأمهات الأولاد، وهتك الحريم...؟ فقال له الباشا: هؤلاء أرقاء بيت المال. فقال الشيخ: هذا لا يجوز، ولم يقل به أحد. فغضب الباشا غضبا شديدا، وطلب كاتب الديوان فقال له: اكتب أسماء هؤلاء لأخبر السلطان أنهم يعارضون فى أوامره. فتقدم إليه الشيخ محمود البنوفرى قائلا: أكتب

ماتريد ، بل نحن نكتب أسماءنا بخطنا . فأفحم الجزائرلى ، وترك بيع نساء المماليك وأطفالهم . وترضّى الشيخ السادات بعد ذلك ، بأن قبل دعوته للطعام عند قبور أجداده بالقرافة .

وعلم حسن باشا هذا بأن مراد بك ، كبير المماليك ، ترك عند الشيخ السادات وديعة ، فأرسل إليه يطلبها فامتنع ، وكانت عند السيد محمد البكرى وديعة أخرى فسلمها . ولكن السادات أبى أن يسلم الوديعة ، وقال إن صاحبها لم يمت ولا أسلمها لغيره مادام حيا .

وقد كان لشجاعة السادات فى هذين الموقفين أثر فى نفس حسن باشا ، لم ينسه أبداً ، فكان كلما ذكر اسم الشيخ السادات يقول : لم أر فى جميع المماليك من اجترأ على مخالفتى مثل هذا الرجل ، فإنه أحرق قلبى . ولكن الشيخ لم يصبه من ذلك سوء .

غضب العلماء

وروى الجبرتى من حوادث شهر جمادى الأولى لسنة ١١٩١ حادثة تدل على مكانة أهل الأزهر ، وما كانوا يثيرونه من الفزع فى قلوب الحكام إذا غضبوا . وهى فى الوقت نفسه ترسم لنا صورة من الحياة الاجتماعية لذلك العهد .

تتلخص الحادثة فى أن المجاورين من المغاربة فى الأزهر آل إليهم مكان موقوف ونازعهم فى ذلك واحد من أصحاب النفوذ يسانده بعض أمراء المماليك ، فأقام المغاربة دعواهم فى المحكمة فأثبتت حقهم فى الوقف . ولكن هذا الحكم لم يرض عنه يوسف بك ، وهو الذى يساند خصمهم ، ويحرضه على عدم تسليم الوقف . وأرسل يوسف هذا بعض رجاله إلى الأزهر ليقبض على رجل يسمى الشيخ عباس ، كان زعيم المتمردين من المغاربة . فلما ذهب هؤلاء الرجال إلى الأزهر قام عليهم المجاورون فطردوهم وسبّوهم . وأبلغوا الأمر للشيخ أحمد الدردير . فكتب خطابا إلى يوسف بك يطلب منه عدم التعرض لأهل العلم ، والخضوع لأحكام الشرع ، وأرسل الرسالة مع الشيخ عبد الرحمن الفرنوى ، وعالم آخر . فلما تسلم منهما

كتاب الشيخ نهرها، وأمر بسجنهما. فلما وصل خبر ذلك إلى الشيخ الدردير وأهل الأزهر، اجتمعوا فى الصباح، وأبطلوا الدروس بالجامع، وكذلك أبطلوا الأذان، والصلاة، وأقفلوا أبواب الأزهر، وجلس المشايخ بالقبلة القديمة. وطلع الأطفال فرق المآذن والمنارات يكثرون من الصياح والدعاء على الأمراء. وأغلق أهل الأسواق القريبة من الأزهر حوانيتهم. فلما بلغ الأمراء خبر هذا الهياج، أرسلوا إلى يوسف بك فأطلق المسجونين، وأرسل كبير الأمراء، إبراهيم بك، إبراهيم أغا بيت المال إلى المشايخ، فلم يستطع التفاهم معهم، ولا تخفيف غضبهم. ثم نزل الأغا إلى الغورية ينادى بالأمان، وفتح الحوانيت، فذهبت إليه طائفة من مجاورى المغاربة ومعهم فريق من العوام فضربوا أتباع الأغا، ورجموه بالحجارة. فلم يرَ بداً من شهر السيف فى وجوههم فشهره، وقتل منهم وجرح.

وفى اليوم الثانى حضر إسماعيل بك، والشيخ السادات، وعدد من كبار المماليك والحكام فنزلوا مسجداً قريباً من الأزهر، وأرسلوا إلى أهله خطاباً بأن ينفضوا، لأن مطالبهم أجيبت. ولكنهم لم يرضوا بمجرد الوعد. وطلبوا جرايتهم ومخصصاتهم، وأبوا أن ينفضوا من الأزهر. وبعد ذلك بيوم حضر إسماعيل بك مرة أخرى، ومعه السادات. وأرسلوا إلى المشايخ خطابا مع الشيخ إبراهيم السندوبى يتضمن: أن إسماعيل بك تعهد بقضاء جميع ما يطلبه أهل الأزهر، وتعهد بصرف جراياتهم ومخصصاتهم، وذلك بضمان الشيخ السادات. وأرسل لهم بالفعل جانبا منها. ففتح أهل الأزهر — بعد تردد وتشدد — أبواب الأزهر. واشترطوا فى صلحهم ألا يمر الأغا، والوالى، والمحتسب، من حارة الأزهر. وتولى إبراهيم بك نظارة الأزهر بنفسه، وأرسل جنديا من عنده لمطبخ الأزهر.

ذلك كان غضب أهل الأزهر لحرمان بعضهم من وقف. وذلك كان أثره فى الدولة الحاكمة إذ ذاك.

ولكن غضب العلماء، والمجاورين، لم يكن دائما لمثل هذا السبب. بل كان يقع، كثيرا أيضاً، بسبب ما يلقى الناس من ظلم. فقد كان حسين بك

المعروف بشفت[1] ، رجلا كثير الظلم . يصادر الناس فى أموالهم ، ويتهجم على بيوتهم ، ينهب منها مايشاء . فذهب يوما بجنوده إلى بيت شيخ دراويش البيومى ، وكان يسمى أحمد سالم الجزار ، ودخل جنود حسين بك إلى منزل الجزار فنهبوا ما فيه ، حتى الفراش وحلى النساء ، ورجعوا والناس تنظر إليهم صامتين . ولكن أهل الحسينية ثاروا فى اليوم التالى ، وحضروا إلى الجامع الأزهر ومعهم طبول ، وحضر معهم كثير من العامة بأيديهم النبابيت والمساوق . وذهب الجمع إلى الشيخ الدردير فشجعهم وأيدهم . فتفرقوا فى أنحاء الأزهر وأقفلوا أبوابه ، وصعد بعض منهم على مآذنه يصيحون ويضربون الطبول . وانتشر فريق منهم فى الأسواق القريبة من الأزهر ، فى حالة منكرة . وقال لهم الشيخ الدردير: فى غد نجمع أهل الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة ، وأركب معكم . وننهب بيوت المماليك ، كما ينهبون بيوتنا . ونموت شهداء ، أوينصرنا الله عليهم . فلما بلغ الأمر ذلك الحد ، وعرفه رجال الدولة . أوفدوا رسلهم إلى الشيخ الدردير يطلبون منه أن يرسل إليهم قائمة بما نهبه جنود حسين بك كى يردوه إليه . وبعد ذلك قصد الدردير إلى منزل إبراهيم بك الذى أحضر حسين شفت وأمره برد مانهبه من بيت شيخ الدراويش فى الحسينية .

وقد كان الشيخ الدردير رجلا شجاعا . وكان العلماء يقصدونه عندما يحتاجون لمن يعينهم على الظلمة من الحكام . وكثيرما هم ، ولكنهم كانوا — مع عسفهم وجبروتهم — يهابونه . كان الشيخ الدردير فى مولد السيد البدوى . وشكا إليه الناس من ظلم أحد الكشاف . ومن مصادرته لأموالهم . فطلب الشيخ إلى بعض أتباعه أن يذهبوا إلى هذا الكاشف ليحدثوه فى ذلك ، ولكنهم خشوا أن يذهبوا إليه . فركب الشيخ . بنفسه ، وتبعه كثير من العامة . فلما دخل خيمة نائب الكاشف ، ناداه إليه ، وكلمه وهو راكب على ظهر بغلته وأغلظ له القول . وأخذت الحماسة واحدا من العامة ، وشجعه كلام الشيخ وعنفه ، فضرب نائب

---

(١) شفت بالتركية معناها اليهودى.

الكاشف بالنبوت . فاعتدى جنود النائب على العامة وضربوهم . وقبضوا على تابع الشيخ الدردير وضربوه . ورجع الشيخ إلى محله غاضبا . ولكن كاشف المنوفية ذهب بعد ذلك إلى كاشف الغربية ، وأخذه لزيارة الشيخ يطلبون صفحه معتذرين . ولما رجع الدردير إلى القاهرة ، ذهب إليه فى بيته إبراهيم بك أمير المماليك ، طالبا رضاه وعفوه .

وفى أوائل سنة ١٢٠٢ كانت الحروب والمنازعات بين المماليك قد أرهقت الناس إرهاقا شديدا ، فضاقت معايشهم ، وفقد الأمن فى البلاد ، وانقطعت الطرق . فرأى الشيخ العروسى . أن يدعو المشايخ ليذهب معهم إلى الوالى يحدثونه فى هذا الأمر ، ويطلبون منه العمل للخروج من هذا الضيق . فلما علم إسماعيل بك ، كبير المماليك ، بسعى الشيخ ، خشى من ذلك ، واحتال لمنع اجتماع العلماء وزيارتهم للوالى . فادعى أن رسولا من الدولة قد جاء براسيم . وطلب من الباشا دعوة العلماء لتقرأ عليهم المراسيم ، فلما اجتمعوا وقرئت عليهم باللغة التركية ، قال الشيخ العروسى : إننا لا نعرف هذه اللغة ، فأخبرونا بمحصل هذا الكلام . فأخبروه بأن أوامر الدولة تقضى بحرب الخارجين من المماليك والقضاء عليهم ، وكان ذلك مايريده إسماعيل ، فقال الشيخ : وماذا يمنعكم من الخروج لحربهم .. ؟ لقد ضاق الحال بالناس ولا يستطيع أحد أن يصل إلى النيل . وقربة الماء أصبحت بخمسة عشر نصف فضة . وإسماعيل بك مشغول ببناء الحصون والمتاريس بدلا من الخروج إلى خصمه كما هى عادة المصريين فى الحروب ، حتى يستقر الأمر ويستريح الناس من هذه المنازعات والحروب . وأمّن الباشا على كلام الشيخ ، وأعانه على كبير المماليك .

ومن مواقف الكرامة والشرف للعلماء ، موقف الشيخ عبد الله الشرقاوى عندما خلع عليه نابليون شارة الجمهورية الفرنسية الثلاثة الألوان .

فقد جمع نابليون كبار العلماء بعد دخوله القاهرة . ثم خرج من المجلس ، وعاد وهو يحمل بنفسه عددا من الطيلسانات بألوان العلم الفرنسى ، ووضع منها واحدا

على كتف الشيخ الشرقاوى . فغضب الشيخ غضبا شديداً . وتغير لونه . وألقى عليسان نابليون إلى الأرض محتداً . وتحدث ترجمان نابليون إلى العلماء متلطفا متوددا ، ولكنهم لم يقبلوا . ولم يتمالك نابليون غضب نفسه على الشرقاوى فأظهره فى المجلس أمام العلماء . وهو الذى كان شديد الحرص على رضاهم . وكذلك وقف العلماء موقفا كريما من الوالى أحمد باشا خورشيد ، فقد كان ظالما جبارا ، أراد أن يوقع ظلما بالسيدة نفيسة المرادية ، زوج مراد بك ، فوقفت منه موقف الشجاعة والشمم ، وأعانها العلماء عليه . فلما رأوا من خورشيد إصراراً على ظلمها . قال الشيخ محمد الأمير له : إن ظلم هذه السيدة أمر لا يليق ، وإن أصررت عليه فنحن لن نشاركك عواقبه . بل سنترك القاهرة لك تفعل بأهلها ما تشاء . وهم الشيخ بأن يترك المجلس مغاضبا ، ولكن نائب الوالى حال بينه وبين ذلك . ورضى خورشد بعد ذلك أن يترك المرادية على أن تقيم فى بيت الشيخ السادات .

وللشيخ السادات ، عدا مواقفه المشرفة ضد الفرنسيين مما ذكرناه فى موضعه[1] موقف فيه كرامة وشجاعة ، وقفه من نائب الوالى عثمان كتخدا . فقد أرسل إليه هذا وقت أن كانت القاهرة تثور على جند نابليون . وكان هؤلاء يصلون أهلها نارا حامية ، بسبب نقض العثمانيين للصلح . أرسل عثمان إلى السادات كتابا ، فأجابه عليه جوابا قاسياً غاية القسوة ، عنيفاً أشد العنف ، بدأه بقوله : حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير . وماهى من الظالمين ببعيد . ثم أشار إلى أن جيش العثمانيين كان حربا على أهل دينه من المصريين بدل أن يكون نصيراً لهم وعونا وأمنا . وأن رئيسهم يعينهم على البغى والجور ولا ينهاهم عنه . وأن جهاد هذا الجيش ليس فى حرب أو كفاح . بل جهاده فى أماكن اللهو والموبقات . حتى أوقع بالناس الذل والضر ، ونزلت بهم أعظم الدواهى والمصائب . فلما وقع بالناس الضر من الفرنسيين ، فر هذا الجند كما يفر الفأر من السنور . وهو كتاب قصير ، ولكنه قوى عنيف غاية العنف . لانجد نظيرا له فى أسلوب ذلك العصر . وفى خطاب أهل السيادة والغلظة من العثمانيين خاصة .

---

(١) فى الجزء الثالث من الكتاب .

شيخ الأزهر يقود الشعب

ونجد فى هذه القصة التى رواها الجبرتى فى حوادث ذى الحجة من سنة ١٢٠٩ أن غضب العلماء قد يصل إلى حد الثورة . وقد نجحت هذه الثورة وحققت أهدافها ولكن تهاون الشعب فى الحرص على ماناله من حق ، وجبروت المماليك وخداعهم جعلا نجاح هذه الثورة موقوتا .

ويحسن أن نقرر ، أولا ، أن البادىء بهذه الثورة ، وزعيمها ، وقائدها ، كان شيخ الأزهر ، الشيخ عبد الله الشرقاوى .

حضر للشيخ جماعة من الفلاحين ، من بلبيس ، وكانت له ضيعة فيها . وشكوا له من ظلم محمد بك الألفى وأتباعه . فغضب الشيخ ، وتحدث إلى مراد وإبراهيم فلم يستجيبا له . ففى اليوم التالى جمع الشيخ العلماء وقفل أبواب الأزهر ، وأمر الناس بغلق حوانيتهم ومتاجرهم . ثم ركب مع المشايخ وتبعهم خلق كثير قاصدين بيت الشيخ السادات ، وكان مجاورا لبيت إبراهيم . فلما رأى إبراهيم تجمعهم عند السادات أرسل إليهم أيوب بك الدفتردار يسألهم ما يريدون ، فحضر إليهم « ووقف بين يديهم » فقالوا : « نريد العدل ورفع الظلم والجور ، وإقامة الشرع ، وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأعدتموها » فقال . ذلك أمر غير ممكن . فإننا إن فعلنا ذلك ، ضاقت علينا المعايش والنفقات . فقال له العلماء : ذلك ليس بعذر لا عند الله ولا عند الناس ، ولماذا تكثرون فى النفقات وشراء المماليك ، والأمير يكون أميراً بالإعطاء ، لا بالأخذ . فقال لهم أيوب بك الدفتردار : أمهلونى حتى أعود لمن أرسلنى ، ولكنه لم يعد لهم بجواب . فعاد المشايخ إلى الأزهر ، واجتمع فيه كثير من أهل القاهرة وأطرافها ، وباتوا فى المسجد . وخشى إبراهيم مغبة الثورة ، فأراد أن يداهنها . فأرسل للعلماء يقول : إنه معهم ويؤيدهم ، وإن مايقع من المظالم ليس له فيه يد . ثم أرسل إلى مراد بك يخيفه عاقبة عناده . فأرسل مراد إلى العلماء يفاوضهم . ثم أرسل يطلب بعضهم إليه . فذهبوا إلى بيته فى الجيزة حيث لاطفهم ورجاهم أن يتوسطوا فى الصلح .

وفى اليوم الثالث ، حضر الباشا الوالى إلى منزل إبراهيم بك ، واجتمع الأمراء هناك ثم أرسلوا إلى العلماء فى الأزهر ، فحضر منهم المشايخ : السادات ، والشرقاوى والنقيب ، والبكرى ، والأمير ، وطلبوا من الشعب ألا يرافقهم ، بل ينتظرهم حتى يعودوا إليه بالنتيجة . واجتمع العلماء الخمسة بالوالى والأمراء . وطال بينهم الجدل ثم انتهى الأمر إلى أنهم — أى الأمراء — تابوا ورجعوا ، والتزموا بما شرطه العلماء عليهم . وأن يبطلوا المظالم المحدثة ، ويكفوا أتباعهم عن أموال الناس ، وأن يسيروا فى الناس سيرة حسنة » وكان القاضى حاضراً فى المجلس ، فكتب بذلك وثيقة وقعها الباشا وإبراهيم ، وأرسلت إلى مراد فوقعها .

وعاد العلماء وشيخ الأزهر ، وأمام كل واحد منهم ، وخلفه ، جملة عظيمة من الشعب وهم ينادون : بطلت جميع المظالم والمكوس من مصر ، حسب مارسم سادتنا العلماء ، وفرح الناس بذلك فرحا عظيما . وسنجد فى الفصل الذى عقدناه عن شعب[1] مصر وكفاحه ، أمثلة أخرى كثيرة رائعة عن شجاعة العلماء .

زهد العلماء وتواضعهم

وقد كانت أخلاق العلماء ، وفضائلهم ، من الزهد ، والبعد عن الصغائر ، والانقطاع للعلم ، والشجاعة ، التى رأينا أمثلة منها . سبباً فى تمتعهم بهذه المكانة العظيمة ، والمحبة عند الشعب . وهذه الكرامة والمهابة ، عند الأمراء والولاة .

الشيخ العفيفى

فمن الزاهدين الذين ترجم لهم الجبرتى ، الشيخ عبد الوهاب العفيفى ، وكان من مشايخ الطرق ، من قرية ميت عفيف ، ومع فضله وعلمه ، كان متواضعاً جدا متحرزا فى مأكله وملبسه ، لا يأكل إلا ما يجيئه من بلده . من الخبز الجاف

---

(١) فى الجزء الثالث من الكتاب

« والدقة » وكان الأمراء يقصدونه للزيارة فينفر منهم . ومن تفضل الشيخ بمقابلته قدم له من خبزه الذى يأكله .

ومنهم فقيه كان يسمى الشيخ الصائم ، وهو تلميذ الشيخ العفيفى ، ترك زى العلماء إلى زى الفقراء ، وباع كل ما يملك ثم سافر إلى السويس فركب سفينة فانكسرت ، وخرج منها بثوبه الذى يستر عورته فقصد بعض الأعراب فأكرمته امرأة منهم ، وبقى عندها زمناً يقوم على خدمتها . ثم تركها إلى ينبع ، فأقام فى مسجدها ، وصعد إلى مئذنته فأذن على الطريقة المصرية فسمعه حاكم ينبع وأعجب بطريقته وصوته ، فاستدعاه وسأله عن حاله ، فقال : إنه فقير من الفقراء ، فأكرمه الحاكم وكساه . وكان يدعوه إلى قصره كل يوم . وبعد ذلك مات كبير من الأعراب . وتشاحن أولاده على ميراثه . فقد موا إلى الحاكم ، فاستمهلهم حتى يرسل بفتواهم إلى علماء مكة . ولكنهم اختلفوا مع الهجان الذى سيسافر بفتواهم إلى العلماء . فلما رأى الشيخ حيرتهم ، وتشاحنهم ، طلب من الحاكم دواة وورقا ثم ذهب إلى المسجد وعاد لهم بعد قليل بجواب فتواهم مدعمة بالأدلة الفقهية . فلما قرأها الحاكم ، وأبدى له عجبه من تواضعه وانكساره فضل نفسه ، قال له الشيخ : إنى لو ادعيت معرفة العلم ما صدقنى أحد ، لرثاثة حالى . فزاد الحاكم فى إكرامه ورفع منزلته . وأجرى عليه من المال ما يكفيه ، وطلب إليه أن يقرأ فى المسجد دروس الفقه والحديث . وعاش بقية عمره عيشة طيبة .

الشيخ الراشدى

ومنهم الشيخ أحمد الراشدى . كان عالماً فى الفقه والحساب والحديث ، حافظاً للقرآن ، حسن الصوت ، عارفا بالموسيقى . فلما بنى محمد بك أبو الذهب مسجده المقابل للجامع الأزهر أراده أن يكون خطيبا له فامتنع على الرغم من إلحاح أبى الذهب . وأرسل له صرة من الدنانير الذهب فردها ، ولم يقبل . فألح عليه مرة أخرى إلحاحاً

شديدا حتى خطب فيه الجمعة . وألبسه الأمير خلعة ، وأعطاه مقدارا من الدنانير قبلها كارها . ورجع إلى بيته محموماً يدعو الله ألا يخطب بعد ذلك فى هذا المسجد . وقبل الله دعاءه ، فظل فى بيته مريضاً حتى مات .

الشيخ البولاقي

وإلى جانب هذا الشيخ ، الذى لم تفتره خلعة محمد بك أبى الذهب ، ولادنانيره ، نجد آخر ، هو الشيخ أبو ذكرى البولاقى ، الذى كان ينتقل من بولاق حيث يقيم ، إلى الأزهر ، راكباً حماره ، ليقرأ على الناس درسه ، ثم يرجع بعد الظهر ، فلما مات حماره ، لم يشأ أن يتخلف عن درسه . بل كان يمشى على رجليه كل يوم من بولاق إلى الأزهر حتى أشفق عليه بعض جيرانه فاشتروا له حمارا .

وكان الشيخ خليل المدابغى عالما كبيرا فاضلا ، ولكنه كان فقيرا . فكان ينسخ للناس الكتب بالأجر ليعيش عيش الكفاف . ويظن من لا يعرفه أنه من العوام .

زهد وعفة

ومن القصص الطريفة التى سجلها الجبرتى عن زهد العلماء ، وكرم أخلاقهم ، أن السلطان محمدا ، سلطان المغرب ، كان يرسل فى كل عام أموالا تنفق على علماء الأزهر . وفى سنة ١١٩٨ وردت هذه الأموال ، وصرفت . وكان لهذا السلطان ولد تخلف فى القاهرة وهو عائد من الحج إلى المغرب ، وأقام فيها زمنا نفد فيه مامعه من المال . وتحدث الناس بقصته . فلما جاءوا للشيخ أحمد الدردير بنصيبه من صلة السلطان ، سأل عن قصة ابنه هذا ، فلما سمعها أبى أن يأخذ نصيبه من الصلة . وقال : والله لا يجوز أن نأخذ أموال أبيه ، ونحن فى سعة ، ونتركه فى الضيق والغربة . ثم أعطاه حقه من الصلة . فلما سافر الولد إلى أبيه السلطان وحدثه بما فعل الشيخ . أرسل إليه عشرة أضعاف ماقدم لابنه . فأدى منها الشيخ فريضة الحج وبنى مما بقى الزاوية التى دفن فيها بعد موته .

الشيخ الشنوانى :

وروى الجبرتى عن الشيخ محمد الشنوانى ، وكان شيخا للأزهر : أنه كان يشمّر ثيابه ويكنس مسجد الفا كهانى بيده ويسرج قناديله . ولما طلب لمشيخة الأزهر امتنع واختفى فى مصر القديمة حتى أرغم عليها . وبقى ، وهو شيخ الأزهر ، ملازما مسجد الفا كهانى ، لم يتخل عن كنسه وإسراج قناديله ، حتى مات .

الشيخ على الصعيدى

أما الشيخ على الصعيدى — وقد ذكرنا من قبل بعض الأمثلة من شجاعته — فقد كان فى مبدإ اشتغاله بالعلم ، كثيرا ما يبيت جائعا ، ولا يقدر على ثمن الورق الذى يكتب فيه دروسه . وكان مع ذلك ، إن وجد شيئا تصدق به . وقد بلغ الصعيدى مبلغا جعل الجبرتى يصفه بأنه « شيخ مشايخ الإسلام » وكان شديداً فى نقده الأمراء وذوى النفوذ . يرى تحريم شرب الدخان . فكانوا يخشون بأسه ويتحاشون أن يشربوه فى حضرته « . ومن شربه أمامه كسر آلة الشرب ، ولو كانت فى يد أمير الأمراء . وكان على بك الكبير يوصى حاشيته أن يخبروه بمقدم الشيخ الصعيدى حتى يرفع « الشُّبك[1] » ويخفى أثر الدخان ، قبل دخوله عليه .

ودخل الشيخ عليه مرة ، فقبل يده وأجلسه . وكان على بك مفكرا قليل الكلام فى ذلك اليوم . فظن الشيخ أنه معرض عنه فقال له الشيخ ، بلهجته الصعيدية ، يامن غضبك ورضاك على حد سواء ، بل غضبك خير من رضاك . ثم ترك المجلس وعلى بك يترضاه ويستعطفه وهو لا يجيبه . ثم عرف أن الشيخ

---

(١) الشيشة أو النرجيلة ، أو قصبة التدخين . ويقول إدوار وليم لين — السائح الإنجليزى الذى زار مصر فى القرن التاسع عشر ، وألف عنها كتابا قيما عربه الأستاذ عدلى طاهر نور باسم « المصريون المحدثون » — يقول لين إن طول هذه القصبة ، كان يبلغ خمسة أقدام ، وقد يزيد على ذلك زيادة كبيرة .

كان قادما فى أمر فقضاه له . ومع ذلك بقى الشيخ منقطعا عن زيارته حتى زاره مع والد الجبرتى بعد زمن طويل . فسرّ على بك بذلك سروراً كبيرا .

وكان الشيخ الصعيدى مرعى الجانب عند محمد بك أبى الذهب ، الذى خلف على بك فى الحكم . فكان المظلومون وأصحاب الحاجات يقصدونه ، وهو يدوّن مظالمهم وحاجاتهم ، ثم يقصد بها إلى أبى الذهب فلا يخالفه فى شىء منها . فإذا رأى عنده بعض الضجر قال له : لا تضجر ، ولا تأسف على أمر يفوتك بغير الحق ، وقد أمرنا ربنا أن نقوم بنصحك ، ويسألنا يوم القيامة . فها نحن أولاء قد نصحناك وأحيانا كان يزجره ويقول صارخا : اتق الله وعذاب جهنم ، ثم يمسك يده ويقول : إنى أخاف على هذه اليد من النار .

وكان الشيخ مع ذلك كثير التواضع ، لا يركب إلا الحمار ، بارا بأهله ، يرسل إلى فقراء بلده — بنى عدى — الصلات والأكسية ، وإلى النساء منهم الطرح والعصائب والأحذية .

الشيخ سليمان الفيومى

وكان للشيخ الصعيدى هذا غلام اسمه سليمان يمشى خلف حماره ، وعليه ثياب خلقة ، ثم يقصد فى الليل — وهو حسن الصوت — إلى بيوت الأعيان ، ينشد الأناشيد ويقرأ القرآن . ومن ثم اتصل ببيوت الأمراء ، ونسائهم . وكانت له عندهن مكانة . وكذلك أحبه الأمراء حتى أوفده بعضهم برسائل منه إلى دار السلطنة . وتزوج من نساء الأمراء ، واتسع جاهه ، وكثر ماله . ولكنه كان كريم النفس ، سخى اليد ، حسن العشرة ، معينا لكل محتاج . فكان الناس يقصدونه لحوائجهم ، فلا يردهم . وأحيانا يقضى يومه كله فى التردد بين بيوت الأمراء للسعى فى حوائج الفقراء والمحتاجين ، فإذا لقى عند بيته ، وهو عائد ليلا من هذا السعى ، فقيرا أو مظلوما يريده أن يذهب فى حاجته ، رجع للسعى مرة أخرى ، ولا يعود إلى بيته إلا وقد قضى له ما يريد . وكان كثير من أصحاب الحاجات هؤلاء يقيمون فى بيته ، وينفق عليهم حتى يقضى حوائجهم ويعطيهم ما يعودون به إلى بلدهم .

ولما قدم حسن باشا الجزائرلى ، وهرب المماليك إلى الصعيد ، أحاط بدورهم وطالب نساءهم بالأموال . وأخذ أولادهم وجواريهم ، وأمهات أولادهم لبيعهم فى المزاد ، فقصد نساء الأمراء إلى هذا الشيخ مستجيرين ، فآواهن وكافح كفاحا شديداً فى سبيل حمايتهن من ظلم حسن باشا ، ومن ظلم إسماعيل بك من بعده. فلما رجع الأمراء أزواج هؤلاء النسوة عرفوا له مروءته ونخوته . وزاد قدره عندهم حتى كانوا — على الرغم من الحجاب الصارم فى بيوتهم وعلى حريمهم — يأذنون له فى أن يدخل بيوتهم فى غيبتهم ، ويقصد إلى منزل حريمهم من غير إذنهم . وكانوا يفرحون بذلك . وخاصة نساء الأمراء . وكن يستشرنه فى أمورهن . ويدعونه : أبونا الشيخ المبارك . ويعملن بما يشير به .

وكذلك عندما دخل نابليون مصر . وقف الشيخ لحماية نساء الأمراء ، وأدخل كثيرات منهن إلى داره ، حتى امتلأت ، فأقمن بها شهورا ، واستجار به كثير ممن حاربوا الفرنسيين، فأخذ لهم الأمان من نابليون . ولقى عند الفرنسيين من المحبة والتقدير مثلما كان يلقى عند المماليك من أمراء مصر . فاختاروه عضوا فى الديوان . وقبلوا ضيافته فى بيته . وجعلوه شيخا على مشايخ البلاد . وظل ، بعد خروج الفرنسيين ، متمتعا بحرمة وافرة ، ومكانة كبيرة ، حتى مات ، وصلى عليه فى الجامع الأزهر ، وسارت آلاف من الناس — نصفهم من النساء — خلف نعشه . ووجدوا عليه دينا قدره عشرة آلاف ريال ، وترك بنتين . ولكن أصحاب هذه الديون سامحوه فيها ، ولم يطلبوها من بناته . فقد كانوا يعرفون أنه أفنى ثروته الكبيرة على المحتاجين وفى وجوه البر. وهذا الشيخ هو الشيخ سليمان الفيومى .

وكما أكرم الناس الشيخ سليمان الفيومى بعد موته ، بأن تركوا ديونهم عليه ، كانوا يكرمون أمثاله من العلماء الفقراء فى حياتهم ، بسد حاجتهم ، مع الكرامة والصون. فمن ذلك ما أشرنا إليه من قبل ، ومن ذلك ما ذكره الجبرتى عن الشيخ أحمد الطهطاوى . فإنه لما سكن حى الصليبة ، احتفى به أهله ،

وأسكنوه داراً تليق به ، وبعثوا إليه بالهدايا الكثيرة والصلات ، وبالغوا فى إكرامه .

وكان الشيخ محمد البليدى الأندلسى ، يلقى دروس الفقه والحديث فى مسجد الحسين ، فتعلق به الناس ، وخاصة المغاربة ، واشتروا له داراً فى درب الشمسى ، وقسطوا ثمنها على أنفسهم .

وذهب الشيخ عبد الكريم المسيرى ، المعروف بالزيات ، إلى الصعيد واعظا ، فلما وصل إلى بهجورة ، تلقاه أهلها وأكرموه ، واستبقوه عندهم ، وخصصوا له منزلا واسعا أقاموا فيه الخدم يقومون على شأنه . وأقطعوه جانبا من أرضهم فملكوه له . وأقام بينهم دهرا طويلا حتى أصبح ذا ثراء عريض يملك الزروع ، والعقارات ، والمواشى ، والعبيد .